



تقديم

بقلم الكاتب النرويجي إنغار كُنْدُسِينُ

آدون المير واحدٌ من أصدقائي الأكثر حميميةً . ينتابني شعور أحياناً وكأنّني عرفته طوال حياتي : بيد أنّه في الواقع لم يمض على لقائنا الأوّل سوى بضع سنوات فقط . كان ذلك بمناسبة أحد معارضه الفنّية في مدينة « كريستيان سُنْد » .

ما أحببته ومن غير سابق إنذار ، لم تكن لوحاته التي حملت مضموناً وشكلاً خاطباً كلاً من العقل والقلب بالنسبة إليّ فحسب ؛ بل أحببت الفنّان نفسه للتوّ أيضاً .

مع ذلك لم أكن أتخيّل حينذاك أنّ صداقةً هي من القوّة والحميمية إلى هذا الحدّ الذي هي عليه الآن ؛ كانت ستنشأ بيننا . قرابة في الفكر والروح تجعل من الممكن إلى حدّ بعيدٍ الاعتقاد بتلك الكليشيه القديمة وجدّ المستهلكة : « إخوّة بالروح » .

كلانا إنسان يحمل همّاً إبداعياً ، وكلانا نصيرٌ للحريّة الفرديّة والتضامن الاجتماعي والمسؤوليّة تجاه المجتمع .

لست أعرف ما الذي قد يكون آدون تعلّمه مني ، ولكنني أعرف تماماً ما تعلّمته منه !

صدّقوني ! أولئك الذين يحملون آراءً متصلّبةً وأحكاماً قياسيةً مُسبقةً حول الحواجز الثقافيّة والاجتماعيّة بين البشر ، كانوا سينتفعون جدّاً في حال أصغوا إلى بعض حواراتنا !

إنّ المسافة الثقافيّة والسياسيّة بيني وبين البعض من جيراني الأكثر قرباً ، لِمسافة سرمدية بالمقارنة إليها بيني وبين آدون ...

أضف عليه فهو ليس فنّاناً تشكيليّاً بامتياز — عبر تلك الصيغ الفنّية التي يحرص على إتقانها ويضطلع بها مجملّةً — وحسب ؛ بل إنّه كذلك يعزّز من خلال ما يكتبه هنا جدارته ومقدرته على الإمساك بزمام اللغة ، لا العربيّة التي يحملها معه من وطنه الأصلي سوريا وكفى ، بل أيضاً تلك التي تنتمي إلى وطنه الجديد النرويج .

لعنة غامضة

آدون المير

I

قد يحمل الزمن الأخير البائس زمناً قصيراً – وليداً – مترعاً بعشق البقاء . ولكنّ كابوس الهزيمة سيظلّ رابضاً حولنا . قابعاً فينا حتى لحظة التلاشي .
سننفض عن وجوهنا غبار الموت . وننبش أمجاد أمواتنا . ثمّ نهرب صوب امتداد الرغبة . إنّها لحظة الاختيار ! والاهتراء جيشٌ يحاصرنا من كلّ اتجاه . لا سبيل إلى تحطّي طغيان المرحلة المريرة . ولا فرصة للتحلّي بريادات الحلم : حتى لو اعتمر الرأس كلّ ما تبقى من الانبهارات الصباحيّة .
فلسفةٌ للهزيمة .. وأخرى للتمرد الفاشل .. نرّهز لإعلان صوتنا . لكنّه ينمحق قبل أن يدرك الصدى مسامعنا .
أيّها الوطن البسيط : ما كلّ صبحٍ مشرقٍ ! ليست الرايات لغّةً للفخار والعزّة . سننضح الموت من خلايانا : لنعيد النبض إلى عروقنا . ونرقب تاريخنا المزوّر : أساطير المجد والانحطاط .
لغةٌ للحقيقة .. وأخرى للنفاق .. وتبقى لهجات الوجد حيزاً أخيراً للتنمّس . الرؤية اتّسعت بضيقها . وتمدّدت أفكار التهاون . وتكاثرت الانشغالات بالعبث : فازدانت أمجادنا بالذلّ . وهدأت خطواتنا زمناً . ثمّ هاجت وهامت على وجهها في التيه . لا فضاءً بنداح لاحتواء أورامنا السرطانيّة !

II

هناك . بحثاً عن زمننا الأوحّد ! زمنٌ قصيرٌ ووحيدٌ ..
زمنٌ أقصر من أن نشعر به . وأوضح من أن نراه ..
زمنٌ أوحّد منا . وأوحّد من وحدة الموت ..
زمن غريب . وأغرب منا في جغرافيتنا الغيبية ..
أوهل يتسع الكون للتأمل : خرائط الأمس وقناديل التألّم .. أفكار الفوضى والشغب .. شاعريّة الحسّ المتنامي ..
وديمومة الهزيمة ؟
إنّها ذكريات النهاية في كونٍ موحشٍ – غارقٍ في تجانس محتواه الهلامي .

III

سأبحث عن بحرٍ من النسيان لأغسل فيه أفكارٍ .
وعن فضاءٍ جديدٍ لأترك فيه دماغي . ثمّ أنساه في ظلمةٍ مبهمّة :
كيلا أستعيد سلطة الأمس الشرسة : فتتفني تباشيرها الأبدية .
سأبحث عن ليلٍ مليءٍ بالنبض . فارغٍ من كلّ المعاني المركّبة : فالحبّ لا يغزو ديار العقل إلّا في أزمنة المعاني البسيطة . الحبّ جيش الجنون المدافع عن حرّية الخيال .. والحبّ سلطة المفردات المشاغبة في الليالي الفارغة من كلّ شيءٍ : حتى من المساحات القاتمة .
سأبحث عن ليلٍ هاديءٍ – صاحبٍ ..
محتجٍ بصمته – صامتٍ باحتجائه ..
أفرغ الأرض من محتواها . وأسرق زيّ الفضاء . وأصبغه بدمعٍ ليليّ القوام . أرثديه . أجعله كفنّاً لي . ثمّ أنطلق نحو الهاوية – نحو الجحيم اللانهائيّ !..

IV

الوقت عدوّ الخَلْق المستحيل . والخَلْق المستحيل لا يتمّ إلا إذا استهلك كامل وقته .
 هنا أو هناك .. كيانٌ من الأعصاب المشحونة بالتوتر أبداً .. اللحظة القادمة تستحوذ على التفكير . وهذا العقل يحتفظ
 بذخائره . يخبئها لمواجهة الزمن الآتي .. القلق والاستنفار .. والباطن جَزَعٌ من ضعفه .
 تُسْتَنْزَفُ طاقة الأفكار بكلّ ما فيها . ويبقى الكيان متحفّزاً لأمرٍ ما . لتحوّل ما .. ما أصعب أزمنا الاختيار !.. ما أصعب
 الوقوف أبداً هناك .. حيثما المكان افتراق الطرق !
 الشّعْر لا يُعَرَّفُ !

هل كنّا ندرك أنّ الحَسْمَ آتٍ لا محالة ؟ كانت مسيرة الحلم المعقّدة تومئ إلينا بأنّ فُرَصَهُ مديدة الأجزاء . وتلك كانت
 متعتنا القصوى . كان الخيار بعيداً ... بعيداً جداً ... لكنّ الوقت لا يبنىء المرء بلحظة قدومه . إنّه عدوّ الحلم – عدوّ
 الحلم كان وما زال ! عدوّ الحلم حقّاً . أم عدوّ العبث واللامعنى والضياع ؟
 كان عبثاً كلّ الأوان المُعاش . وها قد بدأت فرص الحلم من هنا تضيق .. تضيق .. تضيق ..
 إنّه القلق المرعب يستفزّ الباطن .. يستفزّ دواخلنا ؛ لتتفجّر بغضبٍ عارم . المواجهة الحقيقية ابتدأت . أنُعَلِن نفيراً
 عامّاً لإيقاظ عقلمنة العقل . أم سنظّل منساقين . سَلِيسِينَ بالانغماس في الحلم . منهمكين بالانكباب على مدّ الزمن
 الصعب للفرص المزيّفة ؟

V

زمنٌ وسيعٌ من الصمت .. صمتٌ لا نهائيّ !
 وحيث الهدوء يُسمَعُ من أطراف المكان كلّها . يتردّد نعيقٌ غامضٌ . ويقرب شيئاً فشيئاً ؛ ليملا الكون ويعلو بحدّة . كلنّا
 في رقادٍ . ولهاثٍ . وأرقٍ . وحذرٍ . كلنّا قياماً ونياماً . ولا شيء سوى السكينة . ونشيدٍ حماسيّ ينعقُ :
 « سنُعَلِن :

إنّ البارق لن تموت . وستبقى الرايات خفاقةً .. لغتنا لغة الانتصار الحتمي : لغتنا .. خطاباتنا .. شعاراتنا .. لن نقبل
 أبجديّة الهزيمة . ولن يحيدنا أيّ شيء في هذا الكون عن استراتيجيتنا .. « استراتيجيا الخَلْق » : خَلْقُ أجيالٍ لنا في كلّ
 زمانٍ ومكان .. لن نعرف الوجع ولا الذلّ ولا التراجع .. نحن أبناء المرحلة .. كلّ العروش لنا .. كلّ الجيوش لنا .. كلّ الفضاء
 لنا .. نحن أبناء مجدٍ عريقٍ .. والمجد سيبقى لنا . حاضرّاً ومستقبلاً ..
 في حفظك يا الله ! »

VI

... ويعلو النشيد ...

يضيق التنفّس .. تجحظ العيون .. تتشجج الأعصاب ..
 أجساد هزيلة ضعيفة ترتبك أمام كينونة الملامح الغائبة للزمن الجديد .
 يبدأ الحفر بطيئاً – سريعاً ؛ فيُشجج الأفق . ويبدو أصفرَ برتقاليّاً . ومحمرّاً .
 يتسَمَّر الجَمْع في انتظار النهاية . في حين يهدر عبر المدى اللانهايّ صوتٌ غريبٌ غير متوقَّعٍ . مردّداً كلمات المتنبي :
 « وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العار أن تموت جباناً »

كانون الثاني – يناير 1995